التفكير التجديدي في التراث وصراع الفصل والوصل

مقاربة بلاغية لكتاب *تحت راية القرآن* لمصطفى صادق الرافعي

د محمد الوردي[1]

elourdimohamed88@gmail.com

مقدمة لقد شهد النصف الأول من القرن الماضي العديد من الخلافات الفكرية بين النخبة المثقفة بمختلف توجهاتها الفكرية والأيديولوجية. وقد انطلقت كل هذه الخلافات من أساس مشترك، هو الوعي بأزمة الفكر العربي، وضرورة العمل على النهوض بالحضارة العربية من كبوتها التي استمرت طويلا، فيما يعرف بعصور الانحطاط. وإذا كانت النخبة قد اتفقت على تشخيص أزمة الفكر العربي، فإنها اختلفت في اقتراحاتها لطرق تحقيق النهضة، وتطوير الثقافة والفكر. وهنا يمكننا أن نقسم هذا الخلافي بين فئتين: الأولى تمثلت في فئة ترى بأن النهضة العربية لا يمكن أن تنجح إلا من خلال إعادة الاتصال بالتراث العربي، فالتراث عندها هو الأساس الذي ينبغي تجويده وتحسينه والبناء عليه، ذلك أن التراث بما هو حاضن للنص المقدس والمؤسس، هو المرجع الذي يمثل مرحلة النضج وزمن التفوق الذي ينبغي محاكاته.

أما الفئة الثانية، فقد شملت رواد الحداثة ممن انفتحوا على الغرب وانبهروا بالتطور، ورأوا بأن التراث بكل ما يمارسه على ثقافتنا من سلطة يعيق مواكبتنا للتطور الأروبي. وهكذا بدأ صراع القطع والوصل. وإذا كان هذا الصراع قد شمل حقول معرفية متعددة، فإن أبرزها تعلق باللغة والأدب، وصراع القديم والجديد في التواصل البلاغي، وقد كان المنخرطون في هذا السجال كثر، لكن أشهرهم: مصطفى صادق الرافعي، وطه حسين، الأول ينتصر للفصاحة العربية التي يمثل القرآن نموذجها الأعلى والأسمى، والثاني ينتصر للغة العصر والحياة، ويدعو إلى التخلي عن أسلوب القرون الماضية، وتجديد اللغة بأساليب سهلة قريبة من لغة الناس وأفهامهم. ويرتبط هذا الاختيار بسببين، أولهما أن الموضوع مهم جدا ومؤثر ولايزال يثير النقاشات إلى اليوم، بينما الثاني يتعلق بعلو مكانة العلمين الرافعي وحسين وأثرهما البارز في تطور الأدب العربي في مذهبيه القديم والجديد، وهما إلى اليوم يمثلان مذهبين مختلفين وقائمين؛ مذهب يرى أن الفصاحة هي التي أبدعها القرآن، وجرت عليها عادة العرب، وينبغي الحفاظ عليها ومحاكاتها وتطويرها بما يزيدها صلابة ومتانة وبلاغة دون أن يؤثر التطوير على أساليبها وقواعدها وضوابطها. بينما المذهب الثاني يرى أن لكل عصر لغته وأسلوبه، وأن غاية اللغة هي الفهم والإفهام، وأن اللغة ينبغي أن تكون قريبة من حياة الناس ومشاعرهم وعاميتهم.

وقد بدأ الخلاف حين نشر صادق الرافعي رسالة في العتاب منقوشة ومزخرفة، فاستهجنها طه حسين وسخر منها في مقالات نشرت بجريدة *السياسة*. حيث اتهم صاحبها بالتكلف والتصنع واصفا لغته بأنها تثير إعجاب أدباء القرن الخامس وليس أهل هذا العصر، وقد جمع طه حسين مقالاته ضد القديم وممثله الرافعي في كتابه *حديث الأربعاء*[2] فتوالت الردود والمقالات التي تتوالد في سياق سجالي يناقش كل واحد أفكار الآخر ودعاويه. فجمع الرافعي أيضا مقالاته في كتاب سماه *تحت راية القرآن*[3] حاول فيه هدم دعوة الجديد التي أعلنها طه حسين، وضمّنه أيضا ردا على كتابه *في الأدب الجاهلي* الذي أثار الكثير من السجالات.

وسنحاول في هذه الدراسة أن نرصد أهم ملامح هذا الخلاف عند الرافعي، في كتابه *تحت راية القرآن* بما أنه يستحضر أحكام غريمه طه حسين ويحاول الرد عليها وفق بناء حجاجي وأسلوبي شكّل بلاغة خاصة لهذا الحوار الخلافي المفيد. فكيف دافع الرافعي عن التراث؟ وكيف حاجج على أهمية الوصل في بناء الحاضر والمستقبل؟ وما هي الاستراتيجيات البلاغية التي حاول من خلالها ردّ دعاوى أنصار الجديد ورائدهم طه حسين؟

[]

أولا: أطراف الخلاف: عندما نتحدث عن الخطاب السجالي، ينبغي علينا استحضار ثلاثة عناصر؛ فالسجال بداية يتطلب شخصين أو طرفين مختلفين، حول قضية واحدة ينظر إليها كل واحد من وجهة نظر مختلفة، والقضية هنا هي اللغة والأدب في التراث العربي، أما العنصر الثالث فهو الحكم، وهو هنا القارئ، الذي يمكنه في النهاية أن يرجح رأيا على حساب

الآخر، بعد موازنة حجج كل طرف. غير أن الانتصار في الخلافات الاحتمالية يستوجب بناء حجاجيا متنوعا، فالانتصار في الخطاب السجالي يقتضي إضعاف موقف الآخر عبر هدم أطروحته من خلال مستويات، هي أصل الخطاب الإقناعي التي حددها أرسطو حين قال: "والتصديقات التي يقدمها القول على ثلاثة أضرب: الأول يتوقف على أخلاق القائل، والثاني على تصيير السامع في حالة نفسية ما، والثالث على القول نفسه، من حيث هو يثبت أو يبدو أنه يثبت"[4] وهذه الحجج يمكن تحديدها على نفس الترتيب: أخلاق المتكلم/الكاتب (الايتوس)، الحجاج العاطفي(الباتوس)[5]، الحجاج العقلي (اللوغوس). وإذا كان الصنف الثالث من الحجاج هو الأكثر بروزا وإثارة للاهتمام، بما أنه يحتكم إلى العقل والمنطق ويتمثل الموضوعية والعلمية، فإن الحجاج بالايتوس والباتوس يمثل في هذا السياق أهمية كبيرة، لأنه يستثمر كل المعرفة الجمالية والثقافية بمفضليات المتلقي، وذوقه وقناعاته ومعتقداته التي تقتحم سياق هذا الخلاف، ويوظفها في التأثير على الحكم (المتلقي / القارئ). فالكاتب في الخطاب السجالي لا يقنع القارئ/الحكم بالحجج العقلية أو بتحريك أهوائه فقط، ولكنه يقنع أيضا بتقديمه صورة أخلاقية عن نفسه تكسبه ثقة الآخرين[6]، بمعنى أن صورة الكاتب وحضوره الإيجابي في ذهن القارئ يدعم قوة خطابه الإقناعي. ولكن في المقابل هنا، لا تتوقف استراتيجيات الإيتوس في تقديم الذات بصورة أخلاقية جيدة، بل أيضا تقوم على تشويه صورة الآخر/ الخصم، وهذا هو ما نود الكشف عنه في هذا المقام.

لقد بدأ الرافعي خطابه السجالي في كتابه الشهير "تحت راية القرآن" باستراتيجية بلاغية تتلخص في هدم صورة الآخر/الخصم، والذي هو في هذا السياق طه حسين، ممثل المذهب الجديد الذي يتأسس على القطع من الماضي وتجاوزه. وبما أن الرافعي يسعى إلى هدم هذا المقترح، فقد انطلق أولا من إثبات صدور هذا الرأي عن شخص غير جدير بالثقة. من خلال التشكيك في جدارته العلمية ونواياه الخفية، ولعل اختيار هذا النقد الأخلاقي مدخلا لمناقشة الأفكار لا يمكن إلا أن يكون مؤثرا في بناء بلاغة هذا الخطاب الانتصاري، من خلال الكشف عن مضمرات موقف الآخر المعارض للتراث والمنتقد لقيمه، فكيف صور الرافعي غريمه طه حسين؟ والواقع أن الرافعيقد بدأ ردّه على طه حسين، بمحاولة تأسيس صورة عن العالم المثالي القادر على الخوض في مثل هذه الخلافات العلمية، وقد لخص وسائل القدرة في قوله[7]:

> وما وسائلها إلا القلم الذي لا يجارى، والفكر الذي لا يُنقض، والخيال الذي لا يُلحق، والقوة المستحصدة، والطبع المستجيب، والكلام الذي تراه حيا ساميا فتحسبه ينبع من موضع يد الله في النفس الإنسانية.

يستعمل الرافعي هنا حجة التحديد، حين يعرف حدود القدرة التي تكفل لصاحبها جدارة السجال والحق في الانتصار الشريف، ثم ينزعها عن غريمه طه حسين، في صياغة تمثيلية تربط صورة الغريم بالممثل[8]، أي المدعي الذي يتكلف صورة غير حقيقية ويمكن نفسه من مقام لا يستحقه، الممثل شخص يلعب دورا ويتقمص شخصية غير شخصيته، وطه حسين يتقمص صورة العلماء الذين يؤسسون مذهبا جديدا، وهو ما يقتضي تأسيس علوم هذا المذهب وقواعده، فهل فعل طه حسين ذلك؟ إن الرافعي يثبت صفات أخلاق الكتاب وينزعها عن طه حسين، القدرة على الإقناع تحتاج إلى الفكر والخيال واللغة الفصيحة، وإلى الدراية الكبيرة بأصول اللغة والأدب وبعلوم العربية وغيرها من الأمور التي لا يتوفر عليها طه حسين، مما يجعله غير أهل لهذا النقاش والخلاف.

وإذا كان الرافعي يرى بأن أنصار الجديد يفتقدون إلى الكفاءة العلمية لتأسيس لغة جديدة، بقواعدها وأصولها، فإنه أيضا يشكك في الخلفيات المضمرة التي تحرك هذه الرغبة، خصوصا وأن معظم رواد التجديد والقطع من التراث عايشوا التجارب الأروبية وانبهروا بها، وربما حاولوا تقليدها بصورة تسيء للتراث وللخصوصيات الثقافية، يقول مخاطبا طه حسين: "وظنّك أنت قد غرست في جناح غراب ريشة من الطاوس لتكون زرعا ينبت الريش من مثله فينقلب الغراب من ذلك يوما يزدهي ويتخايل ويبرق ويرفّ بألوانه وتحاسينه، فإنه لينقلب طاوسا قبل أن تعدّ طه حسين عبقريا فيلسوفا..! فالرجل متخلف الذهن تستعجم عليه الأساليب الدقيقة ومعانيها وأكبر ما معه أنهه يتحذلق ويتداهى ويتشبه بالمفكرين ولكن في ثوب الرواية..!."[9] والواقع أن التمثيل الأسلوبي ينزع نحو وظيفة تعليمية تفسيرية، لكنه في سياق السجال يأخذ أبعادا من السخرية تبتغي هدم صورة الخصم، والتشكيك في جدارته، فمن العيوب التي يراها الرافعي في غريمه أنه متأثر ومقلد لأهل أروبا لكن دون أن يستطيع اللحاق بهم، ودون أن يتمكن بعد ذلك أن يبقى في حظيرة الأدب العربي، كما ينتقد طريقة زرع التجديد

المستورد في التربة العربية، التي لا تقوم على الوعي بالخصوصيات وبأسس العلوم التي يود المجددون هدمها دون أن يقترحوا بدائل لها.

إن طه حسين في هذه الصورة مقلد متأثر بالغرب، فهو أضاع عروبته وقوميته وظل حبيس ثقافة "العدو" المرفوضة وفق الرؤية العاطفية التي يقصد الرافعي إثارتها في القارئ/ الحكم. وبذلك يسوق الرافعي النقاش إلى صراع حضاري يرتبط فيه انتصار الجديد بهدم الخصوصيات الثقافية لدى العرب، وبناء على ذلك، يتحول الخلاف من قضية جزئية في اللغة والأدب، إلى خطر عام وشامل يهدد الهوية العربية التي تدين بصمودها إلى التراث المؤسس. والذي يهدده طه حسين، الذي صوره الرافعي بأنه لا يفهم التراث ولا يحسن استعمال لغته. ويقول الرافعي في وصف أنصار الجديد[10]:

> فتعرف منهم أبا خالد الفرنسي، وأبا خالد الإنجليزي، وغيرهم ممن أجازوا إلى فرنسا وانجلترا، فأقاموا بهما مدة ثم رجعوا إلى بلادهم ومنبتهم، ينكرون الميراث العربي بجملته في لغته وعلومه وآدابه، ويقولون: ما هذا الدين القديم؟ وما هذه اللغة القديمة؟ وما هذه الأساليب القديمة؟ ويمروّن جميعا في هدم أبنية اللغة ونقض قواها وتفريقها؛ وهم على ذلك أعجز الناس عن أن يضعوا جديدا، أو يستحدثوا طريقا، أو أن يبتكروا بديعا، وإنما ذلك زيغ الطبع، وجنون الفكر، وانقلاب النفس عكسا على نشأتها، حتى صارت علوم الأعاجم فيهم كالدم النازل إليهم من آبائهم وأجدادهم، وصار دخولهم في لغة خروجا من لغة، وإيمانهم بشيء كفرا بشيء غيره، كأنه لا يستقيم الجمع بين لغتين وأدبين، ولا يستوي لأحدهم أن يكون شرقيا، وإن في لسانه لغة لندن أو باريس.

لقد عرض الرافعي هنا صفة عامة في أنصار الجديد، وهي التقليد، الذي يتبعه التنكر للأصول، والانغماس في ثقافة الآخر ولغته، بدعوى الحداثة والجدة، لكنه أيضا أبان عن تصور منفتح لعلاقة الثقافة العربية بغيرها، فهو لا ينتقد الانفتاح على الغرب من حيث المبدإ، بل ينتقد ما يترتب عن ذلك من رغبة في هدم الخصوصية الثقافية العربية، وإلا فما الضير في أن يمتلك الإنسان لغات متعددة؟ وينغمس في ثقافات مختلفة، دون أن يعوج عن أصله وهويته وثقافته. بل يمكن للمرء أن يطمح إلى تجديد ثقافته وتطوير التراث والاستفادة منه، لكن دون الدعوة إلى القطع معه وتجاوزه، أو اتهامه بالسبب في تخلفنا وهو من ذلك براء.

لكن لماذا يتهجم طه حسين على اللغة القديمة الأصلية؟ هل يرجع ذلك فقط إلى الانبهار بالثقافة الغربية؟ يقول الرافعي[11]:

> ويبحث باحثهم في إصلاح الأدب، فهنالك ترى أكثر همّ الأول أن تسلم له عاميته فلا ينكر عليه ضعف ولا لحن ولا يهجن له أسلوب ولا عبارة، وأن يكون له كل ما يعرض له من النقص معتبرا من الكمال العصري.

وهو ما يعني ضمنا أن أدعياء الجديد هم كتاب عاجزون عن الكتابة باللغة الفصيحة، ويدّعون التجديد لقصور أقلامهم عن لحاق البلاغة والفصاحة، فهم ينسبون كل نقص منهم إلى الجديد. وعليه، يخلص الرافعي إلى استنتاج بديهي يتأسس على قاعدة عامة ومنطقية، يقول[12]:

> وكيف تريد ممن عجز عن الفصيح أن يثني عليه، وهو لو أثنى عليه لطولب به، ولو طولب به لبان عجزه وقصوره؟

لقد حاول الرافعي في هذه المرحلة، أن يبني صورة عن خصمه، ليبرز السياق العام الذي يحركه في صراعه وانتصاره للجديد على حساب القديم، وقد اعتمد في بناء صورة الخصم، على النقد التأويلي، الذي حدد فيه صفات خصمه السلبية، والتي تعيقه عن فهم خصوصيات التراث العربي في اللغة والأدب، وذلك لأسباب علمية، فسرها بضعف دراية طه حسين بالتراث وأسرار اللغة الأصلية. ثم انتقد أيضا التكوين الغربي الذي يسيطر على طه حسين، ويجعل هجومه على القديم غير بريء، خصوصا وأن القطع مع التراث، يعني القطع من الهوية والدين والتاريخ.

[]

ثانيا- التقنيات الحجاجية: بعد أن قام الرافعي بتحديد صورة خصمه، طه حسين، انتقل إلى هدم أطروحته، التي تقول بضرورة تجاوز النموذج العربي القديم في اللغة والأدب، واستبداله بنموذج جديد يناسب العصر. وقد لجأ في سبيل ذلك إلى مجموعة من التقنيات أبرزها حجة التحديد، و استراتيجيات الحجاج بالأسباب والنتائج، وقلب الحجة.

1/حجة التحديد: من البناء إلى الهدم: يؤسس طه حسين حجاجه على قاعدة عامة، وهي أن سنة الكون تقتضي صراعا مستمرا بين القديم والجديد، ينتهي حتما بانتصار الجديد، الذي يتحول بدوره إلى قديم يصارع جديد آخر، وهكذا..[13] غير أن ردّ الرافعي سيكون بهدم هذه المسلمة من خلال التشكيك في حد القديم والجديد؛ فانطلق الرافعي من إشكال التحديد، حيث عرض أسئلة موجهة تقتضي هدم المفهوم وتفكيكه من خلال توظيف تقنية القياس الذي يختبر التحديد فيخرج منه عيوبا تقلل من رجاحته، فيضعف موقف الآخر بضعف المفاهيم التي يدعو إليها. ينطلق الرافعي في رده على طه حسين بسؤال : ما هو المذهب الجديد؟

وهو السؤال الذي سبق أن أجاب عنه طه حسين حين عدّ "المذهب الجديد" في اللغة هو ما يناسب العصر والحياة الجديدة، وهو التعبير بما يفهم الناس ويُفهمهم[14]. لذلك يحمل إعادة السؤال في هذا السياق وظيفة التشكيك، بما أن الآخر/ الخصم يبني دعاويه الحجاجية على مفهوم مرتبك وضبابي، فهل يعني هذا أن اللغة الجديدة تقتضي الانحطاط إلى إفهام الناس مهما انخفض فهمهم وبذلك يكون الانحطاط صفة من صفات اللغة الجديدة؟ يقول: " فليقل لنا أصحاب المذهب الجديد ما هو حد التجديد عندهم؟ ولم يقصرونه على حد معين؟ بل وكيف يقصرونه وفي الناس من هو أضعف من ضعيفهم فوجب أن يكون له جديد من جديدهم على مقدار ضعفه، ما دام شكل القياس واحدا والقضية فيه واحدة والعلة لا تختلف!"[15] وعلى هذا الأساس، يكون القياس مفتوحا والحد رحبا فضفاضا، فبما أن الإفهام والسهولة والوضوح هي شروط الجدة، وبما أن أفهام الناس قد تصل حدودا عميقة من الضعف والانحدار، فهنا يكون الجديد متعددا بتعدد صور الضعف وهي الصفة التي تلتصق مباشرة باللغة، فيصبح الجديد في اللغة ضعيفا بما أن الانحدار وطلب السهولة هو قصده، حيث يتعمق ضعف الجديد بعمق أضعف واحد من العامة.

لقد أسس الرافعي رده على طه حسين على قياس مضمر يهدم به مفهوم القديم والجديد عنده، فالجديد وفق هذه الحجة يتصف بالضعف، بما أن غايته خلق لغة تناسب الضعيف وتفهمه، فهذا الجديد يقتضي إنزال اللغة إلى الأفهام الضعيفة المتعددة وليس الارتقاء بالناس إلى لغة القرآن، والتي هي النموذج الأعلى الذي يجدر بنا محاكاته. وإذا كان أصل الجديد ضعفا، فإلى أي مرجع يؤسس الجديد ضعفه؟ هل الذوق أم الانطباع؟ يقول واصفا لسان حال أدعياء الجديد[16]:

> وجئت أنت تقول: هذا الأسلوب لا أسيغه فما هو من اللغة، ويقول غيرك: وهذا لا أطيقه فما هو منها، وتقول الأخرى: وأنا امرأة أكتب كتابة أنثى.. وانسحبنا على هذا نقول بالرأي ونستريح إلى العجز ونحتج بالضعف ويتخذ كل منا ضعفه أو هواه مقياسا يحدُّ به علم اللغة في أصله وفرعه.

إن هذا التشخيص لهشاشة حد اللغة في المذهب الجديد، يرد عليه الرافعي بقاعدة شاملة عامة، صاغها في سؤال بلاغي يدعو فيه خصمه بعد أن أثبت تحديده وكشف جوانبه قائلا: "ثم أي علم من العلوم يصح على مثل هذا أو يستقيم عليه؟ وفيم تكون المجاذبة والمدافعة، وبم يقوم المراء والجدل إذا اتفقنا على أن بعض الجهل لا يمكن أن يكون قاعدة في بعض العلم؟ " يستند الرافعي على حجة قياسية قابلة للتعميم، وهي أن بعض الجهل لا يمكن أن يكون قاعدة في بعض العلم؛ أي إن الجاهل مهما اعتقد في جهله لا يمكن أن يرتقي به ليكون حجة علمية. وعليه، ينبغي أن يؤسس أهل الجديد علومهم الخاصة يبررون بها خياراتهم حتى لا تقتصر فقط على الذوق الشخصي الذي لا يمكن أن يؤسس علما. بل سيظل متغيرا ومتعددا بتغير الأذواق، ووجهات النظر ومستويات الفهم.

وإذا كان الرافعي قد انطلق من هدم أطروحة أنصار الجديد، انطلاقا من تبيين هشاشة التحديد، فإنه أيضا فسّر مضمرات هذا الجديد، انطلاقا من الغموض الذي يجتاح العبارات المستعملة يقول: " لم أقرأ إلى يوم الناس هذا في معنى هذا "الجديد" كلاما يبلغ أن يصوّر منه برهان أو تؤلف منه قضية صحيحة، وكل أقاويلهم ترجع إلى ثلاثة أبواب: جديدة، ومُجدِّد، ولنجدد. فأما الأول، فهو عندهم تقبيح القديم والزراية عليه والنفير منه، وأما الثاني، فهو العائب والشاتم والمهزئ، وأما باب قولهم (ولنجدد) فهو لا يزال إلى الآن مقصورا على قول كل واحد منهم للآخر (ولنجدد)"[17].

لقد خلص الرافعي من تحليله لمفهوم "الجديد" إلى تأكيد صفة الضعف فيه ما دام يتحدد بالنزول إلى أفهام العامة بكل مستويات انحدارها. وهنا يبقى على أنصار هذا الجديد، تحديد قصدهم ب"القديم"، بما أن مذهبهم يقوم أساسا على الفصل والقطع مع القديم. فماذا يرى أصحاب الجديد في حد القديم؟

يرى طه حسين أن القديم هو النموذج المرتبط بالقرون الماضية، وأصل قدمه هو عدم ملاءمته للحياة الجديدة، هذا التحديد هو الذي أثاره من جديد الرافعي في سياق الهدم، بانيا رده على تقنية القياس المضمر الذي ورط غريمه في خلاف ونقد مباشر للنموذج الأعلى، حيث إن اللغة العربية هي لغة القرآن، والقرآن بإجماع العلماء هو أعظم نموذج لغوي وأدبي وجمالي وحجاجي، ووفق تحديد طه حسين، فإن القرآن نموذج قديم ينبغي تجديده، أو على الأصح ليس صالحا في هذا الوقت! يقول: " وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه وفصاحته (يقصد القرآن) .. فإذا كان المعجز في لغة من اللغات بإجماع علمائها وأدبائها هو من قديمها خاصة، فهل يكون الجديد فيها كمالا يسمو أم نقصا يتدلّى؟"[18] وينطوي هذا الكلام على قوة حجاجية تكمن في:

أ. حجة السلطة: فبما أن الخلاف هنا يتعلق بقضية علمية، فالخطاب الفصل فيه للعلماء، وكلامهم يمثل حجة السلطة، أي المرجع الحكم الذي يتعاقد المتحاوران على قوته وصلابة رأيه. وإجماع العلماء على أن القرآن هو أكثر النصوص فصاحة وبلاغة وجمالا، وهذا أمر يتفق عليه الجميع "إلا الجاهل والزنديق"[19]، والاستثناء هنا لا يمثل اتهاما للخصم، بل يورطه ويخضعه قسرا لقوة الحجة، فإما أن ينخرط ضمن الإجماع فيأخذ نصيبا من صورة العلماء، أو يخالف فيتمثل صورة الاستثناء.

ب. القياس المضمر: ويمكن تحديده في:

القاعدة الكبرى: لغة القرآن هي الأجمل والأفصح والأبلغ بإجماع العلماء.

القاعدة الصغرى: القرآن قديم، ينتمي إلى المذهب القديم.

النتيجة: القرآن قديم لم يعد صالحا ينبغي تجديده. فهل الجديد أقوى منه؟

من هنا يخلص الرافعي بغريمه إلى هدم تحديده لمفهوم القديم والجديد، بعد أن يلزمه بمقارنة جودة القديم/القرآن، بجودة الجديد، وهو الأمر الذي يدل عليه السؤال التوريطي، فالقياس السابق الذي يستند إلى حجة السلطة، ينفي ضمنا قدرة عصر من العصور على ابتكار لغة جديدة تفوق لغة القرآن، وبناء عليه؛ يتساءل: هل الجديد يقدم شيئا أفضل أم يقدم نموذجا أدبيا ولغويا ضعيفا؟ والجواب هنا بديهي وواضح، يقرره السؤال البلاغي الذي لا ينتظر منه جوابا، لأن الرافعي يتفق مع القارئ على الجواب.

2/استراتيجيات الحجاج بالأسباب والنتائج: بعد أن عمد الرافعي إلى استدعاء تحديدات الخصم وهدمها، انتقل إلى التعمق في اقتراحاته الإصلاحية التي رجح فيها صلاح اللغة بفتحها على العامية، وهنا اعتمد الرافعي في رد هذه الدعوة التي سماها ب "تمصير اللغة" –أي جعلها مصرية عامية- على حجج الواقع، والتي تعني وضع الدعوة في اختبارات واقعية وتلمس نتائجها، ثم مقارنة النتائج مع الأسباب والدوافع، وتعتمد هذه الاستراتيجية الحجاجية على التأويل الموجه، وهو الذي يصرف الرافعي فيه اقتراح غريمه إلى وجهة مخالفة لما يدعيه، فيقابل الإيجابيات التي يتذرع بها الخصم، بالسلبيات التي تغافل عنها، وهو ما تنتج عنه مقارنة تفاضلية بين الأسباب والنتائج بعد إنزالها إلى الواقع عبر الحجج التجريبية، التي تربط دعاوي الخصم بعلاقات واقعية مثل علاقة التعاقب التي تربط بين ظاهرة ما ونتائجها وأسبابها، والحجة النفعية، التي تقوم بتقييم فعل ما أو حدث أو قاعدة أو أي شيء آخر على أساس نتائجه المقبولة أو غير المقبولة[20]. ويمكن تحديد هذه المفاضلة التجريبة في:

أ. دعوى الخصم: ضرورة تجديد اللغة العربية عبر إدخال كلمات عامية إليها من أجل إغناء المعجم وتطوير اللغة وتقريبها من الحياة. ومنفعة ذلك، هي تسهيل اللغة وتقريب العامة من الخاصة عبر هدم الهوة اللغوية بينهما، وجعل اللغة في متناول الجميع من حيث التواصل والكتابة والفهم[21].

ب. رد الرافعي: تمثل في تجريب هذا الاقتراح وجرد منافعه وسلبياته، فقد أقر بداية هذه المنفعة، ثم انطلق في عرض الوجه الآخر الذي أغفله غريمه:

- إن لكل دولة عاميتها، وإذا التزمت بهذا الاقتراح فإن اللغة العربية ستتحول إلى لغات عامية عديدة، وهو ما يترتب عليه افتراق الأمة بافتراق اللغة التي هي أهم جامع موحد للأمة، وهكذا يفعل التجديد باللغة ما أراد المستعمر أن يفعله بالعرب سياسيا.
- التسامح في استعمال المفردات والتراكيب العامية، سيتراكم من بعدنا ثم من بعدهم إلى أجيال كثيرة، فتنقرض الفصاحة على حساب العامية المتغيرة، وتصير اللغة في القرآن ضربا من اللغات الأثرية التي لا سبيل إلى فهمها أو حتى معرفتها، وهذا سيحول لغة الإسلام إلى الغربة.
- إذا تم قبول هذا الرأي، فأي لهجة في مصر يقع اختيارها لتدخل اللغة العربية؟ فإذا تم استدعاء جميع اللهجات، أبهمت اللغة من حيث أُريد تسهيلها، لأن هناك من المناطق التي لا يفهم بعضهم بعضا بالعامية من شدة تباعدها، وإذا تم اختيار لهجة دون أخرى، فأي لهجة مصرية هي غير مصرية لتستحق النبذ؟

هكذا يرد الرافعي وفق صياغة تشكيكية يختمها بأسئلة توريطية، وبعد أن أثبت الوجه الثاني لاقتراح غريمه، وغلّبَ بحجة الكم، أي أثبت أن أضرار تمصير اللغة أكثر من إيجابياتها، كانت المفاضلة تميل بوضوح نحو رأي الرافعي. والذي يدعو إلى الحفاظ على اللغة الفصيحة والسعي نحو الارتقاء بالناس إليها، عبر تمرينهم وتعليمهم، وتطوير اللغة بما لا يؤذي فصاحتها التي تستمد هويتها من القرآن الكريم. فهذه التجربة الواقعية التي اختبر عبرها إشكالات تجديد اللغة بالعامية، أثبتت أن نتائج الفعل أسوأ، وهو ما يتفق عليه الجميع بما أنه واقعي قابل للملاحظة بيسر. خصوصا وأن الرافعي استثمر صورة غريمه الأخلاقية السابقة، فأدخل في التجريب الواقعي أضرارا سياسية، هي دعم رغبة الغرب التي تسعى إلى تفريق الأمة وإذابة القومية العربية، -وقد اتهم طه حسين سابقا بأنه يميل إلى الثقافة الغربية ويحاول تغليبها على العربية- ثم أضرارا دينية تكمن في إهمال لغة القرآن وتحريفها. فصورة اللغة القرآنية، هي الخيار الإلهي الأمثل الذي لا يمكن تغيير إلا بما هو ضعيف وسيء.

3/**قلب الحجة**: من التقنيات التي وظفها الرافعي في الرد على أنصار الجديد، استراتيجية قلب الحجة إلى النقيض. ومن أن واحدا من أنصار الجديد، استدل على أن التفوق في العلم واللغة لا علاقة له بالعروبة والإسلام، ومثّل لذلك بابن المقفع. يمثل هذا المثال حجة السلطة، بما أن ابن المقفع يتفق الجميع على جدارته العلمية واللغوية والبلاغية والأدبية، وتجربته كفيلة بترجيح الفكرة التي يدافع عنها أنصار الجديد، وهو أن الجدارة العلمية، قد تصدر من عالم غير مرتبط بالعروبة ولا بالإسلام، وهي الأسس التي يحاول الرافعي الدفاع عنها من خلال دعوته إلى الانطلاق في التجديد من الوصل مع التراث. لذلك استغل سلطة هذه الحجة ليقلبها في مستوين:

أولهما: أن ابن المقفع تربى في كنف العرب، وأخذ لغته من الأصول العربية، وهو يمثل نموذجا رفيعا، بما أنه انفتح على اللغات الأخرى، ونقل كنوزها إلى العربية دون أن يطمح إلى تغيير اللغة العربية أو أن يترفع عن الكتابة بها واستثمارها في كتاباته، عكس ما يريده أنصار الجديد.

وثانيهما: أن ابن المقفع لم يستعمل اللغة العامية، ولم ير فيها أي تجديد، ولو كانت قيمة اللغة تتحدد بقربها من العامة، لفعل ذلك ابن المقفع وغيره[22].

خاتمة لقد حاول الرافعي في رده على طه حسين، بناء موقفه البلاغي على قاعدة مشتركة يستميل بها القارئ/الحكم، من خلال ربط اقتراحات طه حسين بأضرار دينية ووطنية تحرك عواطف الحكم، وتستدعي تأييده. ومن هنا تكون بلاغة الانتصار للوصل عند الرافعي شاملة، توسلت بالحجاج العاطفي/ الباتوس، حين ربطت قضية الخلاف بالدين والوطنية والخصوصية الثقافية. والتي هي أمور تثير انفعالات القارئ وخوفه، وبالتالي ينتج عن عاطفة الخوف على الوطن والدين

رفض كل ما يؤذيهما. ثم الحجاج الأخلاقي/ الايتوس، الذي ظهر في هدم صورة الآخر الأخلاقية، من خلال إضعاف صورته العلمية والدينية، قبل أن يستدعي الحجج العقلية/ اللوغوس، والتي تركزت أساسا على حجة القياس والسلطة والتحديد والحجة النفعية والكمية والتعاقب.. وهو ما جعل الرافعي يحاصر القارئ/الحكم بحجاج شامل بغية حمله على الاقتناع بنتيجة بديهية، وهي أن لغة القرآن هي الأصل، لا يمكن أن تكون قديمة أبدا، وهدم هذا النموذج، هو ضرب للدين المقدس، ولوحدة الأمة، الذي هو طموح الغرب الذي يترصد القومية العربية بالضرر والكيد.

لائحة المصادر والمراجع

أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، 1980.

حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1986.

طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف المصرية، ج 2 و3.

محمد، العمري البلاغة الجديدة، بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، 2005.

محمد الوردي، الحجاج العاطفي في كتاب التوهم للحارث المحاسبي، مجلة فكر العربية، عدد مزدوج 4 و5، دجنبر 2017.

محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، دار كنوز المعرفة، 2015.

مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي، ط/7. 1974.

Amossy Ruth. *L'argumentation dans le discours*. Armand Colin. Paris.2010.

---

[1] فرقة البلاغة وتحليل الخطاب، جامعة عبد المالك السعدي، مرتيل.

[2] حسين طه، حديث الأربعاء، دار المعارف المصرية، ج 2 و3.

[3] الرافعي، مصطفى صادق، تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي، ط/7. 1974.

[4] أرسطو، الخطابة، ص29.

[5] الوردي محمد، الحجاج العاطفي في كتاب التوهم للحارث المحاسبي، مجلة فكر العربية، عدد مزدوج 4 و5، دجنبر 2017. ص75.

[6] Amossy Ruth. L'argumentation dans le discours. Armand Colin. Paris.2010. p15.

[7] تحت راية القرآن، ص 9.

[8] م.س.

[9] م.س، ص 9.

[10] م.س.، ص 22.

[11] م.س.، ص22.

[12] م.س، ص 32.

[13] حديث الأربعاء، ج2، ص253.

[14] حديث الأربعاء،ج.3. ص.11.

[15] تحت راية القرآن، ص18.

[16] م.س، ص31.

[17] م.س.، 67 و68.

[18] م.س.، ص18.

[19] تحت راية القر،ن. ص18.

[20] مشبال محمد، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، دار كنوز المعرفة، 2015، ص77.

[21] تحت راية القرآن، 56.

[22] تحت راية القرآن، ص 23.